ظاهرة التصوف ودورها في صقل العلوم الاجتماعية والإنسانية

أ. موسى بن موسى
جامعة الوادي

ملخص:

إن التصوف ملمح تعبدي لكنه ما لبث أن صار علما في حد ذاته، هذا يجعلنا نطرح الإشكال الذي مفاده: ما دور التصوف في صقل العلوم الاجتماعية والإنسانية؟

ومن هنا لا بد من الوقوف عند حجية التصوف ومآلاته ومن هناك يتضح الدور من حيث التكريس للظواهر الاجتماعية والإنسانية.

Abstract:

The insinuation of devotional mysticism but soon became note that in itself, this makes us ask who expressed confusion: What is the role of mysticism in the refinement of social sciences and humanities?

Hence, it is necessary to stand at the Authentic mysticism and the meaning and there is clear role in terms of dedication to the phenomena of social and humanitarian.

توطئة:

التصوف ظاهرة دينية انتشرت في العالم الإسلامي خلال القرن 3هـ/9م كنزوات فردية تدعو إلى الزهد والتشدد في العبادة، للابتعاد بالنفس عن الانغماس في الترف الحضاري، ثم ما لبثت أن تطورت تلك النزوات، حتى صارت طرقا مميزة معروفة باسم الطرق الصوفية، ويتوخى المتصوفة تربية النفس والسمو بها بغية الوصول إلى معرفة الله تعالى بالكشف والمشاهدة، مع بروز ظاهرة الغلو، هذا ما جعل الكثير من المتصوفة يجنحون في المسار حتى تداخلت طرقهم مع الفلسفات الوثنية الهندية، والفارسية واليونانية المختلفة.

والطرق الصوفية تحتل أهمية كبرى في الحياة الفكرية، وهي من القضايا الشائكة والمعقدة في تاريخنا الثقافي والديني. ومن هذه المنطلقات نحاول الوقوف على الإشكالية الآتية والتي مفادها:

ظاهرة التصوف بين الوسطية والغلو، ومدى صقلها للعلوم والمعارف الإنسانية والاجتماعية.

وللإجابة عن الإشكالية سنقف عند النقادة الموالية:

- التصوف: المفاهيم والدلالات.
- التصوف بين الوسطية والغلو.
- مكانة التصوف في حياة الفرد والجماعة.
- دور التصوف في صقل العلوم والمعارف الإنسانية والاجتماعية.

ومن هنا يمكن الوقوف على حقيقة المساهمة التي أبدتها ظاهرة التصوف في بنا ملامح العلوم الاجتماعية والإنساني.

1 - التصوف: المفاهيم والدلالات:

التصوف ظاهرة دينية انتشرت في العالم الإسلامي خلال القرن 3هـ/9م كنزوات فردية تدعو إلى الزهد، والتشدد في العبادة، للابتعاد بالنفس عن الانغماس في الترف الحضاري، ثم ما لبثت أن تطورت تلك النزوات، حتى صارت طرقا مميزة معروفة باسم الطرق الصوفية، ويتوخى المتصوفة تربية النفس والسمو بها بغية الوصول إلى معرفة الله تعالى بالكشف والمشاهدة، مع بروز ظاهرة الغلو، هذا ما جعل الكثير من المتصوفة يجنحون في المسار حتى تداخلت طرقهم مع الفلسفات الوثنية الهندية، والفارسية واليونانية المختلفة.

لكن قبل الخوض في التطور الذي شهدته الظاهرة محل الدراسة، هذا يجعلنا نقف عند بعض التعريفات فهذا شيخ الإسلام بن تيمية يقول : « والصواب أنهم[1] مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد

غيرهم في طاعة الله. ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب.[2] » ويستطرد قائلا : «وإنهم في ذلك بمنزلة الفقهاء في الرأي.[3]». أما تلميذه ابن القيم فيقول: « وأما السابقون المقربون فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو أولا من وصف حالتهم وعدم الاتصاف بها. بل ما شممنا لها رائحة. ولكن محبة القوم تحمل على تعرف منزلتهم والعلوم بها. وإن كانت النفوس مختلفة منقطعة عن اللحاق بهم ففي معرفة حال القوم فوائد عديدة ... ومنها أن هذا العلم هو من أشرف علوم العباد وليس بعد علم التوحيد أشرف منه، ولا يناسب إلا النفوس الشريفة.[4]».

وهذا أبو حامد الغزالي وهو من أكابر المتصوفة يقول: « ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلوب. ويدلك عليه قوله عزّ وجلّ ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ[5]﴾ وما حصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تعريفات الطلاق والعتاق والعناق واللعان والسلم والإجارة.[6] »

أما ما وقف عليه الفقيه الأصولي الإمام الشاطبي فقد عد التصوف قسمين: « وأحدهما التخلق بكل خلق سني، والتجرد عن كل خلق دني، والثاني أنه الفناء عن نفسه والبقاء بربه، وهما في التحقيق إلى معنى واحد. إلا أن أحدهما يصلح التعبير به عن البداية والآخر يصلح التعبير به عن النهاية ... فالتصوف بالمعنى الأول: لا بدعة في الكلام فيه ... وهو فقه صحيح. وأصوله في الكتاب والسنة ظاهرة فلا يقال في مثله بدعة إلا إذا أطلق على فروع الفقه التي لم يلف مثلها في السلف الصالح أنها بدعة كفروع أبواب السلم ومسائل السهو ... وأما بالمعنى الثاني: فهو على أضرب، أحدهما يرجع إلى العوارض الطارئة على السالكين إذا دخل عليهم نور التوحيد الوجداني. فيتكلم فيها بحسب الوقت والحال وما يحتاج فيه في النازلة الخاصة رجوعا إلى الشيخ المربي، وما يبين له في تحقيق مناطها بفراستها لصادقة في السالك بحسبه وبحسب العارض. فيداويه بما يليق به من الوظائف الشرعية والأذكار الشرعية ... فمثل هذا لا بدعة فيه لرجوعه إلى أصل شرعي.[7] ». أما الضرب الثاني: وهو ما يتعلق بالكرامات وهو لابدعة فيه، ليستطرد الحديث عن الضرب الثالث وهو البحث في عالم الغيب وكنه الملائكة والشياطين، وعالم الأرواح وهو بدعة، وعن الضرب الرابع وهو النظر في حقيقة الفناء وهو فقه متعلق بأهواء النفس لا بدعة فية.[8]

ومن خلال ما سبق يتبين أن ظاهرة التصوف لم تتوقف عند أداء بعض الأعمال أداء سلوكيا بل أن التصوف صار علما يخضع لضوابط وهي:

مجال علم التصوف: وهو ما أقره الشيخ محمد النقشبندي فيقول : « هو علم بأصول يعرف بها صلاح القلب والجوارح بتجريد القلب عما سوى الله واحتقار ما سواه بالنسبة إليه والوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا وباطنا[9].»

أسس علم التصوف: إن الأسس التي يعتمد عليه هذا العمل هي أساسين هما:

1 – البحث عما يصلح القلب والجوارح، فلا ينصرف القلب إلى الاستغلال بغير الله.

2 – الالتزام بتنفيذ الآداب الشرعية في السر والعلن.

موضوعه: ويكمن في الشعور النفسي بالإيمان وخشوع القلب، وتهذيب النفس حتى يكون أهلا للعبودية وعدم الانشغال الاغترار بالدنيا، ومنه فموضوعه شاملا متعلقا بأفعال القلب والحواس من حيث التزكية والتصفية.

أثاره: تنعكس أثار علم التصوف في تهذيب القلب ومعرفة علام الغيوب والنجاة في الآخرة والفوز برضا الله تعالى ونيل السعادة للأبد، وعليه فإن أثر التصوف أفضل الآثار لأنه يهذب القلب وينجي الإنسان من العذاب[10].

فضل علم التصوف: علم التصوف علم تعبدي غايته الوصول إلى رضا الله، وهو كغيره من العلوم ذو فضل بارز يكمن في كونه أشرف العلوم لتعلقه بمعرفة الله تعالى وحبه.

أصول علم التصوف: إن علم التصوف كغيره من العلوم الشرعية يرتكز على خمسة أصول هي:

الأصل الأول – تقوى الله في السر والعلن.

الأصل الثاني – اتباع السنة في الأقوال والأفعال.

الأصل الثالث – الإعراض عن الخلق، ويتحقق بالصبر والتوكل لأن الله يحب المتوكلين، وهو حسبهم وكافيهم.

الأصل الرابع – الرضا بما قسم الله.

الأصل الخامس – الرجوع الله في السر والعلن[11].

وعليه فالمتصوف كما يراه ابن تيمية هو السالك طريق التصوف والزهد والعبادة إن لم يسلك بعلم يوافق الشريعة كان ضالا عن الطريق[12].

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن التصوف علم شرعي له جذور التاريخية السليمة مما يجعله علما من العلوم الشرعية التي ينبغي الرجوع إليه وفق ما تقتضيه الأصول المتبعة في تعلم أي علم. لكن ما صار عليه التصوف الحديث والمعاصر مختلفا لما وقفنا عليه سابقا إلا ما رحم الله، وذلك من خلال غياب التصوف الصحيح وحل محله الطرق الصوفية التي بدى عليها في غالبها الانحراف والابتعاد عن جادة ما جاء التصوف لإقراره كعلم شرعي.

2 – التصوف بين الوسطية والغلو:

إن التطور الذي شهد علم التصوف من علم شرعي يهتم بتهذيب النفس وترشيد السلوك إلى طرق صارت ذات إتباع مما أضفى عليها طابع التحزب، كما صارت الطرق الصوفية تحتل أهمية كبرى في الحياة الفكرية، بخلاف ما كان ينبغي أن يلقاه التصوف في حد ذاته، وذلك للوضع الذي آلت إليه الأمة الإسلامية خاصة منذ القرن 10هـ، حيث تفشى الضعف والابتعاد عن جادة الصواب. فصارت الطرق الصوفية محل اهتمام، وهي من القضايا الشائكة والمعقدة في تاريخنا الثقافي والديني[13]، حيث يقول المستشرق الفرنسي "إريك جيوفروي" (Eric Giovroa) : « إن المستقبل في العالم الإسلامي سيكون حتما للتيار الصوفي، ويرى أن الصوفية قد مارسوا السياسة في أحيان كثيرة، كما مارسوا أدوارا ثقافية واجتماعية[14].». أما مفهوم التصوف فقد تعددت تعاريفه بسبب تعدد المتصوفة الذين اهتموا به كعلم من خلال دراساتهم. وهذا ما جاء في أدبيات كل من " السراج الطوسي القشيري "، و" عبد القادر الجيلاني " فكان ذلك التصوف الوسطي الذي أقره العلماء الأوائل.

أما ما قدمه المستشرقون مثل " ماسنيون " (Massignon) و"ألموند تولدكه" (allemand Toldkh) و" نيكلسون " (Nicholso)، كعرض حال لما شهدته الحركة الصوفية مع محاولات تشويه للفكرة، ذلك بالتحامل على الإسلام الصحيح مقابل التسويق للدروشة والمروق. ومن المفكرين المعاصرين الذين اهتموا بالتصوف نجد " عبد الرحمان بدوي " و" أسعد السحراني "[15]، حيث اعتبراه ظاهرة دينية تتفاعل وفقا للتحولات الحاصلة بالعالم الإسلامي سياسيا واقتصاديا، واجتماعيا وثقافيا، من خلال تصويب ما يمكن تصويبه وفقا لمصادر التشريع انطلاقا من أقوال العلماء.

وقد جاء تعريف التصوف في قاموس الحضارة الإسلامية : « أن التصوف أو le Soufisme) (هو ظاهرة دينية اختص بها العالم الإسلامي[16]. ».

والتصوف كلمة عربية الأصل مشتقة من الصوف[17]. كما قام " إبراهيم البسيوني " بتصنيف مجموعة من التعاريف حول التصوف، حيث قسمها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تصوف الزهد المتمثل في كراهية الدنيا، ومحبة المولى عزَّ وجلَّ.

القسم الثاني: تصوف التزكية (الخلقي) فالتصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الصفاء، والتصوف أن لا تملك شيئا وأن لا يملّكك شيئا، التصوف هو قلة الطعام والسكون، والمتصوفة هم الفقراء من الناس.

القسم الثالث : تصوف الهيام والاستغراق أن يكون الصوفي مع الله بلا علاقة، هو استرسال النفس مع الله على ما يريد، وتوصل في الأخير إلى التصوف[18]. والتصوف تيقظ فطري يوجه النفس الصادقة إلى أن تجاهد حتى تحظى بمذاقات الوصول، فالاتصال بوجود المطلق[19].

أما " محمد عابد الجابري " فقد أرجع أصول التصوف إلى الهرمسية بطلمساتها، وعلومها السحرية والسرية[20]، وفي نقده للعقل العربي يرى أن فلسفة ابن سينا قتلة العقل في الوعي العربي. أما عن ابن عربي لم ير في كل ما أبعده سوى نتاج يمثل اللامعقول، الوافد عن الإسلام، والثقافات والديانات السابقة[21]. أما " محمد أركون " فيفرق بين الصوفية والتصوف من خلال تعريفه للصوفية، حيث يقول: «أنها تيار فكري يتمتع بأسلوب حياة دينية يستخدم الشعائر والاحتفالات الفردية والجماعية، من أجل أن يجعل الجسد والروح يتواكبان ويساهمان في عملية تجسيد الحقائق الدينية، فالتجربة الصوفية موجودة في كل الأديان وليست بالتالي حكرا على الإسلام وحده.[22]»، ليواصل تعريفه للتصوف فيقول : « في مقصده النهائي والأعمق يمثل أولا التجربة المعاشة نتيجة اللقاء الحميمي والتوحيدي بين المؤمن والإله الشخصي؛ أي اللانهائي والمطلق المرتبط بالألوهية بالنسبية لمجمل الأديان، وهذه التجربة محللة وموضحة،بواسطة محاسبة الضمير، وعودة الصوفي على ذاته والتجربة التي تحظى بالتأمل على هذا النحو لكلمة تأمل، ثم توضع كتابة تغذي المريد الذي ينخرط في السلوك الصوفي تحت إمرة شيخ ما[23]. ».

والتصوف هو طريقة ونهج في السلوك العبادي، عماده الزهد والتوبة، وقد سبقت التصوف حركة زهد نبعت من جوهر الإسلام. لكن المسار التاريخي للطرق الصوفية عرف مؤثرات دخيلة فيما بعد وردته من مصادر شتى من المسيحية والزرادشتية، واليهودية، ومن الفرس والهند واليونان، لذلك توزع الصوفيون على مذاهب ومدارس، عرفت باسم الطرق الصوفية[24]. وهذه الطرق لها عدة تعريفات مختلفة تبعا لمكوناتها، وتبعا لوسائلها التربوية والروحية، وللأهداف التي تود تحقيقها، وكذلك لما تملكه من سلطات ونفوذ بين الناس، ومن هذه التعاريف :

أولا – أنها أسلوب عملي لرعاية سلوك المريد، وتوجيهه عن طريق اقتفاء أثر طريقة معينة في التفكير

والشعور، والذكر والتعلم والعمل تؤدى من خلال تعاقب مراحل المقامات، وتصاعدها في ارتباط متكامل مع التجارب السيكولوجية، أو النفسية المسماة بالأحوال، وقد كانت الطريقة تعني أولا ببساطة ذلك المنهج التدريجي للتصوف التأملي، وتخليص الروح من أوحال الدنيا، والذكر المتواصل بالتجمع حول شيخ معترف به طلبا للتدريب خلال الاتصال أو الصحبة[25].

ثانيا – أنها سلطة قوية بما تملك من أتباع وأموال مختلفة، وسلطة روحية معنوية على الناس من خلال مشائخها[26].

ثالثا – أنها اعتراف المريد بالولاء التام، والإيمان الكامل، والانقياد المطلق لشيخ الطريقة، الذي يعد من الأولياء الصالحين في نظر المؤمنين به، والذي يستمد نفوذه على أتباعه من القدرة الخارقة للطبيعة (الخوارق والكرامات)[27]، والإتيان بما يعجز عنه البشر عادة، والاستمداد من العلم اللدني[28].

ومن خلال استقراء هذه التعاريف يتبين أن الطريقة الصوفية تتكون من:

– الشيخ العالم أو المربي، أو المعلم ذي السلطة الروحية التي اكتسبها عن طريق اجتهاده وتعليمه، أولعلو مكانته الاجتماعية بين عشيرته وبين الناس.

– المريد الذي يعد تلميذا وسالكا في الطريق بهدى شيخه، والوسائل التعليمية التربوية والطقوس التعبدية، والتعاليم التي يلتزم المريد بها إيمانا أو قولا، أو عملا.[29]

كما نلاحظ أن الطريقة الصوفية سلطة حاكمة تأمر وتنهى، وتتسع صلاحيات هذه السلطة وتقوى بحسب الظروف الاجتماعية والسياسية، كما تقوى بحسب ما تملك من مريدين وأموال. وبحسب قوة شخصية الشيخ أو المؤسس وأعماله وآثاره، ونلاحظ في التعريف الثالث أنه يجسد الوضع الآني الذي وصل إليه التصوف خلال العهدين العثماني والاستعماري من تصور وجوب وقوع الكرامات وخوارق العادات على أيدي شيوخ التصوف ليكونوا أهلا للمشيخة[30].

والطرق الصوفية على العموم هي شكل من أشكال التنظيم الديني السياسي والثقافي، يغلب عليها طابع الغموض، والسرية وتتصف في علاقاتها بالسلطة بالاضطراب والتمرد في كثير من الأحيان، والمساندة والمؤازرة في بعض الأحيان الأخرى. هذا ما جعل الكثير ينظرون للطرق الصوفية على أنها حركات سلبية أكثر منها إيجابية، خاصة في القرن 19م، قرن بدايات تساقط الأقطار العربية في نطاق الاستعمار الأوربي الحديث، مما ساهم في تباين مواقف الطرق الصوفية بالجزائر منذ تواجد الاستعمار الفرنسي حيث تباينت هذه المواقف، فمنها من رفع راية الجهاد كالطريقة القادرية والرحمانية، وغيرهما من الطرق في حين نجد التجانية التي ذهبت إلى اعتبار الاستعمار الفرنسي قدر محتوم، ومجابهته غير ممكنة في

تلك الظروف، فكان ذلك ملمح من ملامح المهادنة والدعة بخلاف ما كانت تراه الرحمانية التي جابهت المستعمر في مقاومات عديدة، لكنها في نهاية القرن 19م تأكد لديها أنه من غير الممكن المواصلة في التصادم مع المستعمر، والقادرية التي مثلها الأمير عبد القادر الذي خاض مقاومة شرسة، لكن مستواها تراجع نتيجة عدم التكافؤ المادي والمعنوي.

ومما سبق يتبين أن التصوف اسس على تقوى من الله غير أن التطورات التي مر بها لم تكن في منأى عن التحولات التي عرفتها الأمة الإسلامية، هذا ما طرأ عن كل العلوم الشرعية دون تمييز فكلما غلب التيار الوسطي ازدهرت العلوم كلها شرعية كانت أو دنيوية، وفي حال طغيان التيار المغالي كلما وقعت الانحرافات وعرفت الأمة الإسلامية وضعا مترديا نتيجة اضمحلال الوسطية التي أكد عليها المصطفى عليه أفضل الصلاة والتسليم.

3- مكانة التصوف في حياة الفرد والجماعة :

إن مكانة التصوف في حياة الفرد والجماعة يقرها القرآن الكريم، انطلاقا من بعد المحبة بين الله والعبد حيث احتوى القرآنُ الكريم على الصور الجنينية للحياة الروحية فى الإسلام، إذ أماطت آياتُهُ اللثام عن رابطةٍ خاصة، متميِّزة ؛ تجمع العبد بربه هى الحب والمحبة. ومن بين أربعٍ وثمانين مرة، وردت فيها كلمة الحب ومدلولاتها فى آي القرآن؛ جاءت هذه الآياتُ مخبرةً عن حُبِّ الله لعباده ، وحُبِّهم إياه: ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله [31]﴾، ويقول الله : ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين .. [32] ﴾ وفي موضع آخر يقول ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله[33] ﴾ ﴿ بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين[34]﴾ ﴿ والله يحب المحسنين[35]﴾، ﴿ والله يحب الصابرين [36] ﴾ ﴿ والله يحب المطَّهَّرين [37]﴾ ﴿إن الله يحب المتوكلين [38]﴾ ﴿اقسطوا إن الله يحب المقسطين[39] ﴾ ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ [40]﴾. وهكذا إلى أن تُخبر الآيات أن الحبَّ بين الله وعباده سيكون البديل الرباني إذا ارتدَّ العوام عن الإسلام ! يقول تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا مَنْ يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه[41] ﴾، والعجيب فى الأمر أن الحب الإنسانى ورد ذكره مرتين فى القرآن الكريم، فى مقابل ستة عشرة آية عن الحب الإلهى .. وفى هاتين المرتين جاء ذكر الحب الإنسانى مرتبطاً بذكر الضلال المبين ! قال تعالى : ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منا ونحن عصبة، إن أبانا لفى ضلال مبين[42] ﴾ ، وفي الموضع الثاني قوله تعالى : ﴿وقال نسوةٌ فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها فى ضلال مبين[43]﴾.

وقد يلقى الله على الناس حُبَّه لعبدٍ من عباده فيحبُّ الناسُ العبدَ المحبوب من الله ، بحبِّ الله له ! وإلى هذا المعنى أشارت الآية القرآنية التى خاطب الله فيها موسى بقوله ﴿ وألقيتُ عليك محبة منى ولتُصنع على عينى[44]﴾، وهو ما صرَّح به الحديث الشريف المرفوع عن أبي هريرة عن النبي : ﴿ إذا أحبَّ الله عبداً من عباده نادى جبريل إن الله يحبُّ فلاناً، فيحبه جبريل فينادى جبريل فى أهل السماء إن الله عز وجل يحبُّ فلاناً، فأحبوه فيُحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في أهل الأرض[45]. ﴾، ثم يصل الحب فى السيرة النبوية إلى ذرى عالية وآفاق رحيبة، فيتوجَّه من القلب إلى الله .. ثم إلى خَلْقه، بل يصير رابطة بين الإنسان والجماد ! وهو ما تجلَّى فى الحديث النبوى الوارد فى الصِّحَاح، حيث رُوى أن النبى ﷺ غاب عن مكة، وفى طريق عودته إليها رأى جبل أُحد فقال: ﴿ إن أحدا جبل يحبنا ونحبه[46]. ﴾ والأحاديث الحاثة عن الحب والمحبة كثيرة، لكن ما يهمنا هنا هو الإشارة إلى أن بذرة المحبة فى القرآن وفى السيرة النبوية، ما لبثت أن نمت، وأثمرت فى أرض العلاقة بين العبد وربِّه، لتكون أساساً تقوم عليه كافة الاتجاهات الروحية في الإسلام. ليتفنن الصوفية المتأخرون حتى استقر الأمر في الوجدان الصوفي على أن: المحبةُ آخرُ درجة من درجات العلم، وأولُ طورٍ من أطوار المعرفة[47]. والمراد بالعلم هنا، المعرفة الظاهرية بالله والعالم؛ أما المعرفة، فهى العلم بالله والرؤية بنوره. أما إذا عدنا للبذور الأولى للتراث الروحى فى الإسلام، فنجد إلى جانب هذا الجانب الركيز: للمحبة جوانب أخرى تجلَّت فى حياة الرسول ودلَّت عليها أحواله وأقواله فقد كان نبيُّ الإسلام نموذجاً كاملاً حيّاً للإسلام. وهو التطبيقُ العمليُّ الكامل لدين الله، وسيرة الرسول ﷺالشريفة هى المستند الثاني مباشرةً للكتاب السماوى المنزَّل. ولما كان نبيُّ الإسلام صاحبَ أحوالٍ وأقوال ما لبثت سيرته أن صارت أبواباً رئيسة للاتجاهات الروحية. فقد جعله الصوفية على قمة سلاسل التلقِّى واقتدوا بأصوله.

ومنه فإن المحبة ملمح التواصل التي من خلالها تتجسد ملامح السلام والوئام والصدق والصفا والطيبة والصبر ... إلخ وهذا ما دلت عليه الآيات القرآنية العديدة، فإذا كانت المحبة من الإنسان لربه ورسوله وغيره من البشر وللحياة بما حوت وفقا لما تقتضيه الحاجة الإنسانية فإن حياة الفرد والمجتمع تعرف انتعاشا مرده العدالة التي مصدرها الحب لأن من خلالها تكتمل الرؤى الصائبة، وتعتد من خلالها سلوكات البشر تجاه ربهم ورسوله وخلقه اجمعين والكون دون اسراف أو تقتير، ومن هنا تتجسد ملامح البناء الحضاري.

4- دور التصوف في صقل العلوم والمعارف الإنسانية والاجتماعية :

التصوف ظاهرة عرفت تطور جعلها ترقى إلى علم التصوف بذاته، بالرغم من تعقده وتداخله، فهو ظاهرة تربوية في أصل وضعه، ومنه فإن علم التصوف يستوعب الاجتماع والفكر والدين والأدب والفن وغير ذلك، وهو بهذه الصورة علم يتناول المسائل النفسية والاجتماعية على حد سواء، كما أنه يمثل ظاهرة فلسفية باعتباره معبرا عن رؤية فلسفية معينة (بصرف النظر عن التقويم) وهو إلى ذلك ظاهرة أدبية لها ميزتها المتشبعة بالرمزية ولغة الإشارات لدى كثير من رواد هذا العلم، إضافة إلى الفن والموسيقى. وكثيرا ما تتجلى مجموع تلك الوجوه في فعل تربوي واحد.

وقد استصحب الدارسون تلك الضروب في دراسة التصوف، ولاشك أن تلك الوجوه تعبر عن جزء من الظاهرة، ولا تستوعب الظاهرة ككل[48]. كما أن التصوف يساهم في بناء تلك الظواهر انطلاقا من الأبعاد التي يمكن أن يتجلى من خلالها الفعل الصوفي على مستوى القيم الروحية والسلوك، هذا من خلال:

التصوف ظاهرة اجتماعية :

التصوف ظاهرة تعبر عن مجتمع مخصوص، يتميز بعلاقات اجتماعية خاصة تحكمها قواعد التصوف الملتزم به، ويركز رواد هذا الاتجاه على البيان أثر التصوف في السلوك الاجتماعي من جهة، واكتشاف الضرورات الاجتماعية الملجئة على الانخراط في سلاك التصوف ورجاله من جهة أخرى، وهو جهد وإن كان بمقدوره تفصيل القول في التفاعل الاجتماعي مع المضامين الصوفية إلا انه دون فهم التصوف من حيث كونه ظاهرة تربوية تمازح الروح وتظهر آثارها على الفرد في تصرفاته الاجتماعية مع جميع الناس فضلا عن أقرب الناس إليه.[49]

التصوف ظاهرة نفسية:

يعرف المهتمون بدراسة التصوف أن له مظاهر أساسية من أهمها الحالة النفسية للمتلقي للعرفان الصوفي في تربيته ومواقفه، لهذا اهتم بدراسة التصوف من حيث كونه ظاهرة سيكولوجية، وهو بهذه الصفة موضوع بكر للدراسات النفسية ومن صميم علم النفس، إلا أنها دراسة من زاوية مخصوصة ليس بمقدورها فهم التصوف بوصفه ظاهرة روحية تتفاعل مع معطيات نصية أو تجربة روحية صرف. والأكيد أنه قد يكون من المفيد الاستفادة من الدراسات النفسية للتصوف ولكنها دون المام التصوف في عمقه، فقد تبدو بعض المقامات أو الأحوال عند المهتمين بالدراسات النفسية نوع مرض أو هذيان، ولكنها غير ذلك بالنظر

إلى الحالات التي يكون عليها المرتقون في تلك الرتب أو المقامات. لا شك بصعوبة الفصل الحدي بين الحالتين، ذلك أن الحد الفاصل بين بعض المقامات والحالة النفسية المرضية دقيق جدا، لكن هذا المقام أو الرتبة تمحص بالتصرفات اليومية لمن أدعى الوصول إلى مرتبة الكشف، فإن كان ممن يرى عليه الصلاح في حله وترحاله، غير مقبل على الدنيا مأسورا بها، وليس من شغله إقصاء الآخرين من التأطير الاجتماعي، فتلك أمارة أساسية على صدق الرجل، أما إن كان (وهم كثر) من يجعل التباهي بالمقامات والتصريح بها فهو ولاشك لم ينل حظا بسيطا من التصوف فضلا عن أن يكون من أهل الإرشاد والتوجيه، ومن كان بتلك الصفة فهو تاجر متملق، يريد أن يسرق الدنيا بعنوان الآخرة[50].

التصوف ظاهرة فلسفية :

تباينت آراء الباحثين حول كلمة التصوف، فيرى بعض المناوئين للتصوف –ولاسيما وحدة الوجود– أن التصوف ليس رياضة روحية وبالتالي ليس ذوقا كما يرى بعض الباحثين، بل هو نتاج نظرية في الوجود والطبيعة والإنسان والمعرفة. ومال فريق آخر إلى القول بأن التصوف تجربة ذوقية وغير أنه يندرج في الدراسات الأكاديمية ضمن الفكر الفلسفي، مما يجعله يدرس ضمن تاريخ الفكر الفلسفي. ودراسته من هذا الوجه قد تساعد في معرفة تاريخ الأفكار ولكنها دون استيعاب التصوف كظاهرة مركبة، تعد الأبعاد الروحية من عمدها الرئيسية، ومن توابعها التدريب عليها في شعاب الحياة.[51]

التصوف ظاهرة أدبية:

ظهر الاهتمام بدراسة القول الصوفي الأدبي، فاهتم المشتغلون بالأدب بدراسة التصوف بوصفه ظاهرة أدبية، فانصب الجهد على دراسة الشعر الصوفي والأدب الصوفي والرمز الصوفي واللغة الصوفية، إلى آخره، كل ما شأنه خدمة المجالات الأدبية بجميع نواحيها في التصوف. ولاشك أنه اهتمام بالتعبير عن الفعل الصوفي أو المكابدة الصوفية وليس بحثا في المكابدة نفسها، وبحث هذا شأنه نافع في الكشف من النواحي المراد بيانها، ولكنه دون مستوى التغلغل في حقيقة التصوف المؤسسة على المكابدة الروحية المستندة إلى نصوص مقدسة نبتت حولها كثير من النصوص الخادمة، نصوص هي أشبه بالحواشي على متن المؤسس. استنفذ الباحثون جهودهم في الأدب الصوفي. ذلك من خلال شرح تلك الاعمال وتحليلها أدبيا من جهة الخدمة الأدبية، كما اهتم اللغوي بالتحليل اللغوي لتلك المجهودات الأدبية، فكان منها دراسة الرمز واللغة الإشارية، والمصطلح الصوفي عند المتصوفة، ولاشك أن تلك الأعمال والأبحاث على أهميتها ونفعها في مجال مخصوص،لا يمكن أن تكون بديلا عن المكابدة في فهم ظاهرة التصوف، ذلك أن

الدراسة الأدبية أو اللغوية للتصوف لا تعدو في أحسن الأحوال أن تكون دراسة للقول الصوفي وليس دراسة للتصوف من حيث كونه تفاعلا مع عمد روحية تتجلى في القول الصوفي.[52]

التصوف ظاهرة جمالية:

يكسب المتصوف السالك من خلال التصوف آليات عديدة تساعده على تذوق الجمال إنطلاقا من:

- جمال الخالق.
- تجليات المطلق في المخلوق.

كما اعتنى المتصوفة بجمال القول وجمال اللحن، وقد عرفت اهتماماتهم اعتبار التصوف بوصفه ظاهرة فنية وموسيقية. بالنسبة إلى دراسة التصوف من وجهة فنية، لاعتبار الفن عند المختصين من أسرع طرق التواصل بين الخلق، ذلك أن البصر يعشق المظهر الجميل والقلب يعشق السمت الجميل، كما تعشق الأذن الصوت الجميل واللفظ الجميل والعبارة الجميلة والموسيقى الجميلة، ولكنها عند المجتمع ليست مطلوبة لذاتها، بل لها وظيفة مستقلة يعبر عنها بمقصد المقاصد في درس جماليات التصوف، ذلك أن النظر الجمالي يعد وظيفة تربوية تساعد الناظر على حمله إلى الجمال وفق مسلكهم على الترقي سلم الأحوال والمقامات، وبهذا تجاوزوا مرحلة عبثية النظر إلى الجمال لأنه جمال، ذلك أنه ينظر إليه عند القوم في دلالته على مانح الجمال، والجمال عند القوم في عباراته وإشارته وصوره مرايا الجمال المطلق. والجمال بهذه الصفة لغة مشتركة بين جميع أفراد المجتمعات الإنسانية، وبهذا يمكن أن تكون لغة الجمال والنظر الجمالي أداة للتواصل الإنساني، ذلك أن العقلاء وعلى رأسهم المتصوفة مشتركون في النظر الإجمالي للجمال وإن اختلفوا في وظائف النظر الجمالي. وقد اهتم الأدباء والفلاسفة والفنانون بدراسة التصوف من وجهة جمالية، وظهر هذا المسعى في بحوث كثير من الغربيين.[53]

وخلاصة القول إن الحتمية العلمية تقر بأن التصوف علم قائم بذاته، وذلك وقوفا عند ما أقرَّ به العلماء باعتباره العلم الثاني بعد التوحيد، ومن هذا المنطلق فإن حجية الاعتماد عليه ضرورة علمية لما يقتضيه الحال للتعرف عنه على قرب، ومن هنا يتأكد لنا إلزامية اعتماده علما من العلوم الواجب تعلمها ذلك لما يقدمه من معارف وسلوك تجعل المطلع عليه ودارسه على يقين من قيمته يرقى إلى مصاف الارتقاء في مدارج السالكين. ذلك لما يقدمه علم التصوف من تزكية وتحلية للنفس التي من خلاله تتخلص من براثين وقيود المادية التي بدورها تنطلي على القلب وتجعل منه مصدر تلقي وإرسال غير آبه بأحقية الانتماء إلى عالم الإنسانية التي ما فتئ الإسلام يرسي معالمه لتحقيق الرؤية المتبصرة للآخر دون

التحامل عليه من منطلق عدم الانتماء إلى الإسلام، أو حتى لطائفة مسلمة بعينها يختلف فيها مع غيره دون مراعاة الحديث الشريف : ﴿ لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه[54]. ﴾ ومن هنا يتوجب علينا الوقوف على دلالات ومعاني علم التصوف والمآلات التي قد يصل إليها الدارس. هذا بدوره يجعلنا نقر بصلاحية علم التصوف في بعث الظواهر المختلفة التي بدورها تساعد في ترقية العلوم الإنسانية والاجتماعية، انطلاقا من حاجة الإنسان للمعقول والغيبي حتى يحقق الحضور ماديا والشهادة روحيا، فتتوافق المنطلقات مما يجسد الصورة الانسجامية التي جاء من أجل تحقيقها الإسلام الصحيح.

وعليه فالتصوف ارتقاء بالروح إلى مصاف العرفان الإلهي الذي بدوره يبعث الطمأنينة فتجعل من الفرد يتسامى في مواقفه وينظر للآخرين بعين العطف والريبة، كما يصبح طرفا فاعل يسعى باستمرار إلى تجاوز العقبات دون تذمر أو استسلام. فالحياة إن لم تسدها روح التوافق بين المادة والروح اختل التوازن وفسدت الأرض انطلاقا من حالة الاضطراب التي ما فتئ العالم الإسلامي يتخلص منها بدعوى الاهتمام بالروحانية على حساب الماديات غير أن الحاصل ميدانيا العكس. في حين الغرب نجده يغالي في الماديات لكنه لا يتجاسر على منظومة السنن انطلاقا من عالم القراءة التي بدورها تضمن صيرورة الريادة الحضارية انطلاقا من مبدأ العدل أساس الملك، ومن هذا المنطلق أمر الله سبحانه وتعالى بإقامة العدل وتحقيقه بين الناس في كل شيء في آيات كثيرة من القرآن الكريم فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[55] ﴾، في حين أن الظلم آذان بخراب العمراب[56]. ومن هنا يتبين لنا عظم علم التصوف وما يمكن أن يقدمه للبشرية من اغراض عديدة لا حصر لها.

الهوامش:

[1] والمقصود الصوفية.

[2] ابن تيمية : **مجموع الفتاوى لابن تيمية**، مج 6، ج 11، ط 4، اعتنى بها وأخرج أحاديثها عامر الجزار وأنور الباز، دار الوفاء ودار ابن حزم، بيروت، 1432هـ،/2011م، ص 14.

[3] ابن تيمية : **مجموع الفتاوى لابن تيمية**، مج 5، ج 10، ص 370.

[4] ابن القيم : **طريق الهجرتين**، ص 260، 261.

[5] التوبة 122.

[6] أبو حامد الغزالي : **احياء علوم الدين**، ج 1، ط1، إعداد ودراسة إصلاح عبد السلام الرفاعي، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ص 32

[7] الشاطبي : **الاعتصام**، ج 2، ص 208.

[8] عبد السلام ياسين : **الاحسان**، ج1، ط1، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، المغرب، 1998، ص 30.

[9] محمد حربي : **ابن تيمية وموقفه من أهم الفرق والديانات في عصره**، ط1، عالم الكتاب، بيروت، 1407هـ/1987م، ص 177.

[10] محمد حربي : نفس المرجع، ص 177.

[11] نفسه، ص 178.

[12] نفسه، ص 177.

[13] عيسى قوراري : " دور الطريقة العمامية أو الإيمانية في مقاومة الشيخ بوعمامة "، **الملتقى 11 حول التصوف الإسلامي والتحديات المعاصرة**، جامعة أدرار، أيام 09-11 نوفمبر 2008.

[14] عيسى قوراري : نفس المرجع.

[15] هنري كوربان،حسين نصر عثمان يحي : **تاريخ الفلسفة الإسلامية**، ترجمة نصير برون وفييمي حسن، ط2، منشورات عويدات، (د. ب)، 1977، ص 282.

[16] Thoval. J : **Dictionnaire de civilisation musulmane**, Larousse, Edition Originale, Paris, 1995, p 251.

[17] أحمد حسن : **قاموس المذاهب والأديان**، ط1، دار الجيل، بيروت، 1998، ص 139.

[18] إبراهيم البسيوني : **نشأة التصوف الإسلامي**، دار المعارف، مصر، 1969، ص.ص 17 – 24.

[19] إسماعيل محمود : **سوسيولوجيا الفكر الإسلامي التطور والازدهار**، ط1، مؤسسة الانتشار العربي، مصر، 2000، ص 217.

[20] إسماعيل محمود : نفس المرجع، 217.

[21] علي حرب : **نقد النص**، ط3، المركز الثقافي، مصر، 2000، ص 227.

[22] محمد أركون : **الفكر الإسلامي نقد واجتهاد**، ترجمة وتعليق هاشم صالح، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1993، ص 153.

[23] نفسه ، ص 153.

[24] عيسى قوراري : المرجع السابق ص 153.

[25] سبنسر ترمنجهام : **الفرق الصوفية في الإسلام**، ترجمة عبد القادر البحراوي، دار النهضة العربية، بيروت،ط1، 1997م، ص 26.

[26] محمد الأمين بلغيث : " السلطة في الجزائر وتونس في القرن 17م من خلال تاريخ العدواني "، **الندوة الفكرية الخامسة للشيخ محمد العدواني**، الزقم، الوادي، 01، 02، 03 نوفمبر 2000م، ص 6.

[27] فيلالي مختار الطاهر: **نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني**، ط1، دار الفن القرافيكي، باتنة، ص 64.

[28] العلم اللدني هو العلم الذي يحصل بالرياضة والمجاهدة، بحيث تُدرِك النفس من خلاله المعارف الربانية بغير واسطة من العالم العلوي لا من خارج بطريق الحواس، وتتطبع بالفضائل من محبة الحق ومعرفته، والشوق إلى جمال حضرته؛ أي الله جل جلاله، فيصير لها ذلك خُلقا وعادة. – ينظر ابن الدباغ عبد الرحمان بن محمد الأنصاري : **كتاب مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب**، تحقيق هـ. ريتر، دار صادر، بيروت، 1959، ص 6.

[29] عبد الرحمان تركي : " نشأة الطرق الصوفية بالجزائر دراسة تاريخية "، **الملتقى 11 حول التصوف الإسلامي والتحديات المعاصرة**، جامعة أدرار، أيام 09-11 نوفمبر 2008.

[30] نفس المرجع السابق.

[31] البقرة 165.

[32] البقرة 222.

[33] آل عمران 31.

[34] آل عمران 78.

[35] آل عمران 134

[36] آل عمران 146.

[37] التوبة 108.

[38] آل عمران 159.

[39] الحجرات 9.

[40] آل عمران 76.

[41] المائدة 54.

[42] يوسف 8.

[43] يوسف 30.

[44] طه 39.

[45] الحديث رقم 6040. كتاب الآداب. محمد بن اسماعيل البخاري : **صحيح البخاري**، ط1، دار ابن كثير، بيروت، 1423هـ/2003م،ص 1513.

[46] الحديث رقم 1393. كتاب الحج. باب أحد. مسلم بن الحجاج : **صحيح مسلم**، ط1، دارطيبة، الرياض، 1427هـ/2002م، ص 626.

[47] التقاليد الصوفية ودورها في المجتمع الإسلامي موقع يوسف زيدان الالكتروني http://www.ziedan.com/research/ABS1.asp

[48] سليمة محفوضي : " أبعاد التصوف "، **مجلة عود الند**، العدد 69، السنة السادسة، أذار/مارس 2012

[49] سليمة محفوضي : نفس المرجع.

[50] نفس المرجع السابق.

[51] نفس المرجع السابق.

[52] نفس المرجع السابق.

[53] نفس المرجع السابق.

[54] الحديث 13 رواه البخاري ومسلم. – ابن رجب الحنبلي : **جوامع العلوم والحكم**، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، 1422هـ/2001م، ص 302.

[55] النحل 90.

[56] عبد الرحمن بن خلدون : **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق أحمد جاد، ط 1، القاهرة، 1428هـ/2007م، ص ص 269-272.